طالبو إحسان أم شركاء؟

شعارا: «إن القرآن كله مليء بتفسيرات صبيانية للعالم قد عفا عليه الدهر».

(Dr. Paul Ezer ـ د. باول إسر: خطاب قارئ مبعوث إلى جريدة FAZ بتاريخ ٢٨ / ٥ / ١٩٩٧).

ـ ١ ـ

من حسن الطالع أن هناك إلى جانب العلامات الدالة على المقاومة المتزايدة من الغرب للإسلام، علامات عكسية، أي إشارات إلى استعداد الغرب تقبل الإسلام بالرغم من المشكلات التي سبق ذكرها.

فالإنسان الغربي ـ على أقل تقدير ـ مستعد لتقبل المسلم بما يميزه فلكلورياً مثل الكباب والكسكسي والكاري، كتقبله للإيطالي بالبيتزا والمجائن، فالإسلام مرحب به كتنوع غريب.

سيزداد انتشار الإسلام عن طريق زيادة المواليد بين المسلمين، حتى وإن أخذت نسبة المواليد في الانخفاض بسبب ارتفاع مستوى المعيشة، لقد أصبح اسم محمد أكثر أسماء الذكور شيوعاً بين المواليد.

من المحتمل ألا توجد أزمة في الدين نفسه، ولكننا لا نستطيع أن ننفي أن المؤسسة الكنسية تعاني من أزمة واضحة. وهذا يفسر نشأة وظهور موجة من التدين ذات طبيعة فوضوية وسط الانهيار الذي تشهده الكنيسة، ويمثل هذا إجابة طبيعية ورد فعل مسوَّغاً لما يشعر به الكثير

من الشباب من فراغ ديني. من الممكن أن يتم البحث عن معنى عميق للحياة وعن قيم دائمة - إحدى الطرق المؤدية إلى الإسلام - عن طريق التقوقع وحركات الصحوة.

على أي حال لا ينسحب كل من يترك الكنيسة إلى دين ذاتي شخصي أو يتخذ موقفاً لا أدرياً.

يعد احترام الاختلاف إحدى فضائل ما بعد الحداثة، ومن مظاهرها كذلك حب الأشياء الغريبة حتى وإن كانت في صورة شغف بالعالم الثالث، وكذلك مقاومة العولمة وآثارها. وبالرغم من محاولة استبعاد الإسلام، فإن المسلمين يمكنهم بشكل أو بآخر الاستفادة من موجة ما بعد الحداثة.

ولقد أدى عجز الغرب في حل النزاع الدائر في البوسنة وحماية المسلمين هناك، إلى تفجر شعور بالذنب، أدى إلى تدخل الغرب في آخر الأمر لصالح المسلمين في كوسوفا. وتقوم بعض الدول الإسلامية ذات التأثير القوي والأهمية الإستراتيجية وبفضل ثرائها وغناها بالثروات المعدنية، باستغلال دورها على الساحة الدولية لخدمة الإسلام، ليس فقط من خلال بناء المساجد، أو طبع ونشر الكتابات الإسلامية الكلاسيكية باللغات الأجنبية. وتعد الكويت وقطر وأبو ظبي والشارقة وكذلك السعودية من ضمن هذه الدول، وكذلك منظمة المؤتمر الإسلامي.

وبفضل هذه الدول والمؤسسات ودورها الحامي للإسلام والمسلمين، لم يعد بوسع الغرب التعامل مع المسلمين لديه دون مراعاة الأصداء الدولية لهذا التعامل، ويتمتع الإسلام في هذا المعنى بنوع من المكانة بين القوى المختلفة.

أصبح للمنظمات الإسلامية في الآونة الأخيرة مكانة في كل من بلجيكا والنمسا، كما أصبحت تحظى باحترام حكومي واضح في إسبانيا، حتى أصبحت إسبانيا صالحة لتكون مثالاً ونموذجاً يحتذى به في تشكيل وتحديد العلاقة بين الدولة الغربية ومسلميها.

لقد فوض البرلمان في مدريد الحكومة في عقد اتفاق مع د. منصور عبدالسلام إسكودرو Escudro رئيس إحدى المنظمات المركزية الإسلامية المعترف بها حكومياً، وبعد التصديق على الاتفاق تم نشر هذا الاتفاق بصفته القانون رقم ٢٦ لعام ١٩٩٢ بتاريخ ١٠ من نوفمبر عام ١٩٩٢ في الجريدة القانونية.

وينص هذا الاتفاق على تدريس مادة الدين الإسلامي في حالة طلبها، حتى في المدارس الخاصة، وكذلك توافر الرعاية الإسلامية في القوات المسلحة والسجون.

كما أن للمسلمين الحق في التوقف عن العمل لأداء الصلاة، ولكن عليهم أن يقوموا لاحقًا بأداء ما فاتهم من ساعات العمل. تتمتع المساجد والعاملون بها وأرشيفها بالحصانة، ولأئمة المساجد سلطة عقد الزيجات. للمسلمين الحق في الحصول على إجازات في أعيادهم، على أن يعملوا في الإجازات المسيحية[1]. أخيراً تم افتتاح جامع في قرطبة بعد ٦٠٠

(١) لقد ظهرت نسخة فرنسية للتنظيمات والقوانين الإسبانية في باريس ١٩٩٤ رقم ٢ Le Conseil Nr. 2. وأخرى إنجليزية في ENCOUNTERS رقم ٢ / ٢ Markfield, LE (UR) عام ١٩٩٦ ص ١٥٥ ـ ١٦٧.

انظر هنا مراد هوفمان: الإسلام في إسبانيا ـ نموذج يصلح لأوروبا ـ في الإسلام ميونخ ١٩٩٦ عدد ٤ ص ٤، ٥.

عام من إغلاق الجوامع بها. أما في طليطلة، فأقيمت بتاريخ ٣٠ / ١٠ / ١٩٩٨ صلاة جمعة في جامع كان قد أغلق لمدة ٥٠٠ عام. لقد نالت إسبانيا بهذا الاتفاق استحساناً بالغاً في العالم العربي ـ الإسلامي.

لقد انضمت اتحادات مركزية إسلامية في الدول الأوربية في تشكيل هو الاتحاد المركزي الأوروبي، الذي يُعَدُّ لجنة التعاون الإسلامي في أوروبا، واتخذ من مدينة ستراسبورج مقراً له[٢].

أما في ألمانيا فيزداد الوعي بأهمية دور اللجنة المركزية لمسلمي ألمانيا التي تشكلت عام ١٩٩٤، والتي تُعَدُّ صوت المسلمين غير المرتبطين بتركيا[٣]. تقوم هذه اللجنة بإقامة «يوم المسجد المفتوح» يوم ٣ من أكتوبر من كل عام، حيث يجتمع في هذا اليوم ما يزيد على ١٠ آلاف مواطن يتعرفون لأول مرة على الواقع الإسلامي.

لقد قامت الكنيسة الإنجيلية في ألمانيا والمنظمات التابعة لها بتعيين شخصيات معنية بأمور الإسلام، ولقد كان لهؤلاء الشخصيات دور بارز في أن تأخذ مناقشة الإسلام شكلاً أكثر موضوعية ـ كما ساهموا في مقابلات إنسانية مثمرة بين الديانتين ـ كما لو أن روح المجمع الفاتيكاني الثاني قد وجدت لها تحققاً من خلال الكنيسة الإنجيلية الألمانية.

---

(٢) المنسق هو أ. د. عبد الله بوسوف، - Impasse du Mai F-6700 Strazbrng Tel. t 33/3 8822. 1095.

(٣) ZMD, Vogelsanger Str. 290. Tel +49 - 221 - 244. 34/D - 50825 Koln 222.g567 الرئيس يدعى د. نديم (Eschweiler)

ومن بين الأدلة على هذا، التقويم السنوي الذي يأخذ في الحسبان الديانات الثلاث والذي تصدره الكنيسة الإنجيلية، ويشرف على إصداره القس Thomas Dreesenوهو متزوج من تركية مسلمة. وهناك بعض المدن مثل Offenbach أوفنباخ، قامت بتخصيص مساحات لإقامة مدافن إسلامية مزودة بالتجهيزات اللازمة لعملية تفسيل الموتى.

ـ ٢ ـ

هذه سلسلة من المؤشرات المضيئة لتقبل الإسلام في أوروبا، ولكن هدف الإسلام هو الاعتراف به واحترامه، وليس مجرد تقبله. فقد قال جوته Goethe: «التقبل والتسامح مجرد خطوة لابد أن تؤدي إلى الاعتراف، أما مجرد التقبل فهو إهانة».

يستطيع المسلمون أن يصلوا إلى هدفهم بأن يكونوا شركاء للغرب، وليس مجرد طالبي إحسان، إذا ما نجحوا في إقناع الغرب بأن الإسلام يمكن أن يقدم لهم الشيء الكثير مما يحتاج إليه الغرب بشدة ويفتقده، حتى إن الإسلام يستطيع أن يحرره وينقذه من أزمته الوجودية. فالإسلام يمكن أن يكون دواءً لداء الغرب وليس مجرد عنصر يعمل على تعدد ألوان صورة الغرب.

يعتقد Walter Lippman أن الغرب تتهدده اليوم بروليتاريا فكرية، وليس بروليتاريا العمال التى كان كارل ماركس ينادي بتكوينها وتشكيلها.

«إن البرابرة لا ينتظرون خارج الحدود ولكنهم يحكموننا منذ زمن» كما يقول Alagdir MacIntyre[(٤)].

ولكن إذا كان الأمر بالفعل كذلك، أي أن جذور الأزمة الأخلاقية الحالية في الغرب تعود إلى ٢٥٠ عاماً مضت، فإن عملية الشفاء منها تبدأ بنقد جذري لعقلانية الحداثة وما خلقته من دين بديل.

فلن يكون هناك أمل في الشفاء إلا إذا نجحنا في تحرير الغرب من وهم الحداثة التي تحكمه؛ لأننا في هذه الحالة فقط ننجح في وقف عملية التسميم الذاتي العقلاني التي يمارسها الغرب ليتمكن من إعادة صلته بالغيبيات وأن يستعيد المقدس والإلهي مكانته في دائرة اهتمامه ويكون هذا أمام عينيه.

إذاً فالأمر يتطلب إعادة الاعتبار للدين كرد فعل عقلاني على حاجة الإنسانية والتي لابد وأن تبدأ بوضع العلوم التطبيقية في مكانها الطبيعي، وليس كبديل عن الدين.

الأمر باختصار يتطلب عملية تغيير في النماذج المتبعة، تهدف إلى رؤية دينية جديدة للعالم، تتجدد من خلال موضوعية الإسلام وغيبياته المعقولة ووحدانيته الخالية من الأسرارا والغموض.

من الممكن نظرياً أن تقوم المسيحية بكل هذا، ولكن نظرياً فقط؛ لأن المسيحية قد فقدت بمرور الوقت المصداقية المطلوبة بسبب المبالغات التي تتضمنها. ولم تبد الشخصيات المؤثرة في الكنيسة استعدادها

---

(٤) نقلاً عن Ophulsص٥٧ .

لاهوتياً لإعادة التصحيح و«كبح» هذا التدهور، ولا نرى أنه من الممكن أن تساهم أي ديانات أخرى أو أيديولوجيات في مسألة إعادة تشكيل الغرب ومساعدته على الشفاء من أمراضه. فالبوذية لا تساعد على تشكيل جماعات كبيرة. والليبرالية القائمة على «الحق الطبيعي» أضعف من أن تقوم بذلك. كلا ـ كما سبق القول ـ فإن الديانات المستعارة والبديلة غير قادرة على فك أغلال القوى الضرورية للتغلب على أنانية الفرد والجماهير.

ـ ٣ ـ

إنني أثق في قدرة الإسلام على النجاح في أن يستبدل بالنموذج القائم نموذجه القادر على تجاوز فشل الحداثة (وذلك بالرغم من القصور بين أتباعه) للأسباب التي سأذكرها لاحقاً.

ـ ٤ ـ

ـ الدفء الإنساني: لقد داعب حلم «The Greening of America» ـ إعادة الازدهار إلى أمريكا، خيال الأجيال الشابة مع مؤلف هذا الكتاب Charls Reich ولم يكن حلم Reich أو حلم الدوحة الوارفة لتنشئة الأطفال يعني سياسة تشجير المتنزهات، ولكن كان يهدف إلى تعاون جماعي ومشاركة جماعية جديدة تتسم بالكثير من الدفء الإنساني.

ولكن هذا النداء لم يجد له صدى. فلم تجد الأجيال الدفء، بل وجدت بدلاً منه البرودة الشديدة، ولم تعد هذه البرودة سمة مميزة للعلاقات الشخصية فقط، بل أصبحت سمة للوضع الاجتماعي ككل. إن الوعظ في الكنيسة يطالب دائماً بأن «تحب جارك كما تحب نفسك»،

ولكن لم يعد هذا إلا كلاماً يتلى في الصلوات. أما في الحقيقة، فإن هناك برودة اجتماعية تسود جميع العلاقات، ومنافسات قطع البلعوم حتى أصبح القد الاجتماعي أشبه ما يكون بمؤسسة راسخة في ظل النظام الرأسمالي. «فالناس لا تريد أن تكون غنية بل أغنى من غيرها». (جون ستيوارت ميل، J.S. Mill) وفي ظل هذا المجتمع يشق كل فرد طريقه مستخدماً العنف ليصل إلى سعادته المرتبطة، بل المتمثلة، في الاستهلاك: فالزوج يستخدم العنف ضد زوجته ليحقق نجاحه الخاص، وهي تفعل المثل والأطفال ضد الآباء، والعكس، كل ينسج خيوطه حول ذاته التي لا تمس.

في ظل هذه الظروف تعيش الجماعات الإسلامية في الغرب حالة تماسك اجتماعي يترفع عن العناصر العرقية والقومية، هذا التعايش يشع دفئًا اجتماعياً ملموسًا. لا يملك المحيط الغربي إلا أن يتابع المسلمين بدهشة بالغة، حين يراهم وهم يشيدون المساجد من حصيلة نقودهم التي حصلوا عليها من تطوعهم بالعمل في إجازات نهاية الأسبوع وغيرها، وكيف يحتفل المسلمون بأعياد الفطر وعيد الأضحى وكأنها حفلات عائلية كبيرة. فالمسلمون يخلّصون الدين من ارتباطه بخصوصية الإنسان ويجعلونه عامّاً. إنهم يؤممون الدين. والكثير من المراهقين يعجبهم هذا على وجه التحديد. فكثيراً ما وجد أحد المعتنقين للإسلام طريقه للإسلام من خلال الإحساس الجماعي واستعداد المسلم للتضحية ومراعاته للغير، وبسبب هذا الدفء الإنساني.

أما بالنسبة لمعاداة الإسلام للعنصرية، فلقد أفردنا له فصلاً خاصاً به. فقد اعتنق الكثيرون من المضطهدين والمنبوذين الإسلام بسبب معاداته للعنصرية ومساواته بين البشر، ومن هؤلاء الجماعات نذكر على سبيل المثال وليس الحصر: المنبوذين في الهند، والفلبينيين العاملين في الخليج العربي، والأمريكيين من أصول إفريقية في الولايات المتحدة.

ومن النقاط التي لا تقل أهمية: حرية الفر دفي علاقاته بربه، أي عدم وجود وسيط بين المسلم وربه، وكذلك دون سلطة كهنوتية. فالنصوص الإسلامية الأساسية متاحة للكل، لا يستطيع أحد أن يدعي أنه يحتكر تفسيرها. كما أن «خادم الحرمين الشريفين» بالرياض لا يمتلي عرض البابوية. ولا توجد محكمة كنسية كالتي في روما La Rota Romana، وليس هناك نسق كنسي. وليس هناك فتوى ملزمة للمسلم. والزواج ليس رباطاً مقدساً لا يفصم. يستطيع كل مسلم أن يؤدي أي عبادة دون وجود وسيط، وخلو هذا الدين من التسلط الكهنوتي، وغياب الهيراركية فيه، يؤثران بشكل إيجابي على كثير من الشباب في الغرب.

لقد بالغت الحداثة في أداء وظيفتها في استبعاد جميع الأسرار والمعجزات والأعمال الخارقة من العالم، وكانت النتيجة استياء عاماً من كل شيء يبدو وكأنه معجزة واحدة هي القرآن، ولكن الأهم من ذلك أن الإسلام يطالب المسلم دائمًا بألا يدع أحداً يفكر له، فهو ملزم بالتفكير والتدبر. لا يصح للمسلم أن يتوارث دين آبائه دون اقتناع منه بهذا الدين بعد أن يُعمل عقله ويقرر لنفسه. أي أنه وفقاً لرأي جوته Goethe على المسلم أن يكتسب إرثه الديني عن طريق الفكر حتى يمتلكه حقّاً.

وهذه العقلانية التي تميز الإسلام والتي تنعكس في الأجواء الواضحة التي تسود الجوامع تثير إعجاب كثير من الناس.

يعتقد Rudiger Safraski أننا نعيش عصر «تعدد الآلهة العلماني»، فالإله الواحد «تشرذم في عدة آلهة منزلية صغيرة»(٥). ويشاركه المسلمون الرأي نفسه، فإدمان الإنسان الغربي للسجائر والخمر وجميع أنواع المخدرات الأخرى، والسيل الذي لا ينقطع من إعلانات التليفزيون التي يتعرض لها الإنسان في الغرب، كل هذا أصبح عملية منظمة تستهدف الإنسان، وينعكس في عملية الإدمان هذه السابق الاجتماعي المحموم للحصول على نصيب وقسط من السعادة المفقودة.

لقد دفع الغرب ثمن ازدياد ظاهرة الإدمان وآثارها المدمرة على الحضارة الغربية، ولكنه لا يستطيع ـ كما هو حال المدمنين ـ أن يفعل شيئاً حيال ذلك، فبدلاً من القضاء على المخدرات، يحاول التوصل إلى أنواع أقل خطراً، ويقوم بالسماح بأنواع أكثر وبمنح حريات أكبر في تناول المخدرات.

إن أمريكا التي ثارت وهاجت ضد تجارة الخمور في عشرينيات هذا القرن، ولم تخرج من هذه المعركة إلا وقد أضافت إلى مشكلاتها مشكلة جديدة هي المافيا، أمريكا هذه تثور اليوم مجدداً ولكن ضد التدخين.

أما بالنسبة للمسلمين، فإن الصورة تختلف. ففي مقابل مشكلة المخدرات هذه يقف المسلم بما يفرضه عليه دينه من الصحوة والإفاقة

---

(٥) Safranski: «إدارة الإيمان»FAZ ملحق تاريخ ٢٤ / ١٢ / ١٩٩٣ .

من المخدرات كافة. فرفض المسلم للإدمان ليس مبنيًا على مراعاة صحة الفرد فقط، ولكن أيضاً يبتعد به المسلم عن عصيان بالله بأن يرفض تخدير وتغييب عقله، الأمر الذي يمنعه من ذكر الله والعمل بشرعه، فكأنه في النهاية طريق للشرك.

وتستفيد من هذا الأمر في أمريكا الأحياء التي يقطنها الأمريكيون ذوو الأصول الإفريقية، عندما يتعاون المسلمون على إخلاء هذه الأحياء من المخدرات بشكل سلمي عن طريق الدين، كما يحدث في لوس أنجيلوس وفيلادلفيا.

يرى William Ophuls أن الاتجاه النسائي المتطرف ذا الصبغة الغربية، إنما هو «إعلان بالانهيار التام والنهائي للمجتمع المدني»(٦). ويتساءل الكثيرون من المعنيين وهم في حيرة من أمرهم: ماذا سيحدث لهذا الجيل الذي تربى في ظل غياب الأب؟ هل سيقوم هذا الجيل بالقضاء تمامًا على الأسرة؟ ويولي المسلمون للأسرة أهمية قصوى، وينزلونها منزلة عالية حتى إنهم يرفعونها إلى أعلى مكانة، فيعدونها أهم وحدة اجتماعية. والمسلمون يدقون ناقوس الخطر حين يقولون: إن انهيار المجتمع يبدأ من الأسرة وينتهي كذلك عندها.

ويستجب بعض الشباب الذي أخافهم انتشار مرض الإيدز لهذا الإنذار ويعودون للارتباط الوثيق بأسرهم. ولقد وجد كثير من الناس طريقهم إلى الإسلام عن طريق معايشتهم للأسر الإسلامية.

---

(٦) Ophuls ص٥١ .

من الطبيعي أن يعتقد المرء أن «الحق في الحياة» حق لا خلاف عليه، وهو من حقوق الإنسان البديهية، ولكن هذا لا ينطبق إلا على المحظوظين منا ممن تمكنوا من اجتياز أخطر مرحلة لما قبل الولادة وتمت ولادتهم فعلاً.

فلم يَعُدْ هناك ـ حتى في الأوساط الكاثوليكية ـ حركة قوية ونشيطة مناهضة لمسألة تقنين عمليات الإجهاض والسماح بها. فليست صحة الأم فقط هي التي لها أولوية على حياة المولود في الغرب، بل هناك كذلك ما هو أهم من حياة المولود، مثل السيارة الثانية، والفراء الثاني، والإجازة الثانية. ويتخذ بعض الناس ذوو العقليات المتحفظة موقفًا أصولياً متطرفًا من مجتمعاتهم، ويكتشف بعضهم أنهم فيما يخص مسألة إباحة الإجهاض أو تحريمه، إنما يشاركون موقف الإسلام من تحريمه، بل تجريمه للإجهاض. وإن موقف الإسلام هذا، واتباعه أفضل بكثير من إلقاء القنابل على العيادات التي تجري فيها عمليات الإجهاض.

يستطيع المرء المتابع للمسيحية في موقفها من الجنس والمرأة أن يلاحظ وجود اتجاهين متناقضين، بل متطرفين، وذلك منذ بولس وباركوس وأوجوستس حتى يومنا هذا. ويتمثل هذان الموقفان في موقف شديد التطرف من المرأة والجنس ينادي بالبيوريتانية الشديدة، ويكاد يرى في المرأة الشيطان نفسه.

أما النقيض الآخر لهذا الموقف فهو الانغماس بلا حدود أو رادع في الملذات الجنسية. وإذا ما نظرنا إلى هذا الموقف الأخير على أنه غير

مسيحي واستبعدناه تمامًا من المسيحية، لأمكن فعلاً وصف المسيحية كما فعل Georg Denzler فأسروماها «٢٠٠٠ عام من تحريم المتعة».

على النقيض من المسيحية، استطاع الإسلام أن يدمج الجنس في حياة المسلم اليومية دون اتخاذ موقف أحادي متطرف. كما أن الإسلام لم يتخذ موقفًا مناهضاً للمرأة أو الزواج ولم يرفع في الوقت نفسه الزواج إلى مسألة القدسية، لقد أبدى المسلمون دهشتهم من أن الجنس والعلاقة الزوجية مثاب عليهما من الله، فقام الرسول بتوضيح ذلك حيث بين لهم أن العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج الشرعي إنما هي خطيئة يعاقب عليها الإنسان، إذًا فالأمر الأول أي الثواب هو الوجه الآخر للعملة، أي للعقاب على الخطيئة. ويتطابق الموقف العقلاني الذي يتخذه الإسلام من الجنس مع الفطرة البشرية، ويفسر كذلك عدم وجود رهبنة في الإسلام وعدم وجود ساحرات! فإذا أراد الغرب أن ينجو أخيراً من التخبط بين النقيضين في الموقف من الجنس ـ هذا التخبط الذي كلف المجتمع الغربي الكثير ـ فإن الإسلام دين الوسط يلوح كمخرج وملاذ.

أما بالنسبة لموضوع تحرير المرأة فقد بدأ المرء يلاحظ صحوة في الغرب، بعد أن اكتشفت بعض النساء أن الأوان قد فات ليصبحن أمهات في خلال انغماسهن المحموم لتحقيق نجاحات باهرة في مجال العمل. ولقد زاد من أسباب هذه الصحوة أن الكثيرات من النساء لاحظن أن الساحة السياسية ودنيا العمل لا يزال الرجل يحكم سيطرته عليهما، وأن

obeikandi.com

المرأة لا تزال تتعرض لأنواع شتى من الاستغلال حتى لأغراض دعائية وإعلانية. وفي ظل هذا المناخ، فإن الكثيرات من النساء قد تيقن أن وضع المرأة في الإسلام وتحرير الإسلام للمرأة لهو أنسب مما يعيشه الغرب. ولذلك تختار كثيرات من النساء ـ بحريتهن ـ ارتداء غطاء الرأس، والالتزام بالزي الإسلامي ليكتسبن وقاراً وكرامة واحتراماً كن قد فقدنهم في خضم التنافس على العري العلني.

وبالنسبة لمشكلة الشذوذ الجنسي، نستطيع أن نقول كلاماً مشابهاً لما ذكرناه عن الإجهاض. فإن الشائع الآن أن يبتعد المرء عن هذه المسألة. وقد شهد الغرب تخبطاً واضحاً وتأرجحاً بين موقفين متطرفين من هذه المسألة؛ فتارة يعاقب القانون على الشذوذ، ويتحول الشاذ فجأة من مجرم إلى عضو في أقلية تتمتع بكافة الحقوق والحماية التي للأقلية، بل لهم الحق في عقد الزيجات بينهم!

ولقد اتخذ الإسلام موقفاً عمليًا عقلانياً من الشذوذ، فالآية ١٦ من سورة النساء تقول: ﴿ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾.

فكثير من المفسرين يعتبرون الآية ـ والآية التي تسبقها ـ عن الشذوذ، والإيذاء هنا كلمة واسعة تحتمل صنوفاً كثيرة من التعزير طبقًا للحالة، أهي مرضية وانحراف عن الفطرة بسبب التنشئة وما إلى ذلك؟ أم هي مجرد فسوق وعصيان يستوجب التعزير الشديد؟

وتقول الآية السابقة لها ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلاً﴾، ونجد هنا العقاب بحبس تلك النساء ـ بعد شهادة أربعة عليهن ـ في بيوتهن حتى يتوفاهن الموت، أو يجعل الله لهن سبيلاً، وتبين الآية ١٧ ذلك السبيل ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾.

والإسلام لا يرفع الشذوذ إلى مستوى حياة مقبولة أو حتى مثالية. فالشذوذ لا يمكن عَدُّه أسلوب حياة أبداً.

وهذا الموقف ينال إعجاب ورضا أناس في الغرب، ويزداد الإعجاب بموقف الإسلام حيث يؤدي هذا لموقف إلى مقاومة انتشار مرض الإيدز.

يبتسم المسلمون ابتسامة ذات دلالة عند رؤيتهم للمواد الطبية المستخدمة لإنقاص الأوزان أو للأطعمة المخصصة للحفاظ على رشاقة الإنسان، خاصة أن مشكلة السمنة أصبحت إحدى الظواهر المخيفة في المجتمعات الغربية، أي مجتمعات الوفرة والاستهلاك. وسبب هذه الابتسامة التي تحمل قدراً من الدهشة والسخرية، يعود إلى اقتناع المسلم بأن أنظمة التغذية التي تهدف إلى إنقاص الوزن لا فائدة منها إذا لم تصاحبها عملية تجديد ذهني وروحي، وأن صيام شهر رمضان كما أمر به الله وكما أراد للمسلم أن يؤديه يفي بكل ما تهدف إليه الأنظمة الغذائية وأكثر ، أي: الإحياء الذهني والروحي، وممارسة الانضباط، وفقدان الوزن الزائد والسعرات الحرارية غير الضرورية.

لقد تعرف كثير من الناس في الغرب على الإسلام في شهر رمضان، وتبينوا من خلال هذا أن الإسلام دين يعنى بالإنسان من جوانبه كافة، ويهتم كذلك بإعادة تشكيل الإنسان.

يعاني الإنسان الغربي من التوتر، ليس في موقع العمل فقط، ولكن في أثناء إجازته، بل وخلال ممارسته للجنس داخل إطار الزواج أو خارجه؛ فمشكلة هذا الإنسان ـ والتي لم يفكر أحد فيها سابقاً ـ هي أن يتعايش مع الحياة. فالمشكلة ليست ماذا يحدث في أثناء الحياة، ولكن المشكلة أن تكون أصلاً على قيد الحياة؛ ولذلك فإن الأمريكي المتوسط له دائمًا طبيب نفسي، إلا إذا كان يتبع أحد الطرق التأملية مثل اليوجا أو طقوس الشاي اليابانية. ولن تجد إنساناً لا يعاني من أزمة وجوده هذه، إلا وعَدَّه الآخرون إنساناً غير متعايش مع واقعه وغير عاقل؛ ولذلك فإن William Ophuls ليس على خطأ تام عندما يقول: إن علم الطب النفسي هو ذاته المرض ولو ادعى هذا العلم قدرته على شفاء الناس منه[(٧)].

ويكتشف بعض الناس أن الإسلام يستطيع أن يحقق معجزة وهي أن يجد الإنسان نفسه ويحفظ ذاته من خلال أدائه للصلاة، والتسليم بكل شيء وبنفسه لله الأعظم الرحمن الرحيم. وفي الوقت نفسه يوفر الإنسان هكذا أموالاً طائلة..

كتب فرانشيسكا أو جشتاين Franziska Augstein ذات مرة أن اقتصاديات السوق الحرة حقًا يتم ـ حديثًا بمساعدة هيجل ـ توطينها أمام بوابات الجنة، أي في أفضل العوالم كلها[(٨)].

(٧) Ophulsص١٩٨ .

(٨) Augstein «يا إلهي قدسيتك عظيمة جداً» FAZ٢٣ / ٤ / ١٩٩٨ .

ولن يستطيع أحد أن ينكر أن هذا النظام الاقتصادي تحول في الغرب إلى «مجتمع متخم بالرفاهية»، مجتمع التشتت والكآبة (Andreas Puttlmann)[(٩)]. ولا تعود ملكية رأس المال العامل والمحرك للاقتصاد الأمريكي إلى مستثمرين مغامرين يستطيعون إعطاء النظام الرأسمالي الحيوية الضرورية، والزيادة تشهدها المؤسسات التي تضمن عائدات الربا وليس المؤسسات التي تغامر برأس المال في مشروعات إنتاجية، ويرتبط بهذا النظام مخاطر مثل الركود.

أما الإسلام بإصراره على منع وتحريم الربا، فإنما يصر بهذا على تشغيل رأس المال الباحث عن الربح والزيادة عند شخص ثالث ولكن في صورة مشاركة في الربح والخسارة. ويؤدي تحريم الإسلام ونهيه عن المضاربة إلى حماية رأس المال ومنع التلاعب به في كافة الصور من أسهم إلى عملات وغيره.

هناك من لا يجد مأربه في النظام الاقتصادي الاشتراكي المبني على الخطط، ولكنه يرفض كذلك الرأسمالية بحرياتها غير المقيدة. يستطيع من يجد نفسه في مثل هذا الموقف أن يكتشف أن الإسلام يمثل طريقًا وسطًا في الاقتصاد خاصة بعد قراءته للتحليلات المبهرة لعمر شابرا Umer Chapra، وهو سعودي من أصل باكستاني تعلم في الولايات المتحدة.

بعد أن تناولت بالعرض ما يمكن أن يقدمه الإسلام للغرب من مفاتيح جوهرية ومفاتيح أقل أهمية. (وما يجعل هذا الدين جذاباً

(٩) نقلاً عن FAZ ٢٧ / ١ / ١٩٩٥ ص ٣٨ .

بالنسبة للغرب)، فإنني سأحاول أن ألخص هذه الفروق الكثيرة بين الغرب والشرق في مسمى واحد، وإن كان هذا ـ بطبيعة الحال يقلل من حجم الحقيقة إن لم يكن يكاد يمحوها ـ الفارق الأساسي بين العالمين الغربي والشرقي يتلخص في الفرق بين «الكمية» و«الكيفية» Quantity & Quality. فالغرب لا يعرف قيمة أي شيء ما لم يستطع أن يعبر عن نفسه في أرقام.

فالقيم الفكرية والروحية لا يمكن تسويقها أو الإعلان عنها، ولذلك فهي بلا قيمة مادية. وفي هذا الإطار، فإن اهتمام الإنسان الغربي يدور حول ما (يملكه وما يكون لديه) أما الإنسان الشرقي فيهتم (بالوجود). ويثبت ذلك أن الحديث يدور بكثرة في الغرب وليس الشرق عن «جودة الحياة». ومن يعيش في الشرق يكتشف في حقيقة الأمر: جودة ومعنى للحياة غير قابل للإعلان عنه أو تسويقه، يظهر في السلوكيات مثل: الموقف غير المتشنج بل الهادئ من الوقت، كرم الضيافة، تواضع العلماء، تحويل كل ما يراه الغرب من ضروريات الحياة إلى مرتبة ثانية، الهدوء والرضا والقناعة كأسلوب حياة.

إن الأمر كله يكن في هذا «النور»، هذا الضوء الذي كان دائمًا يشع من الشرق، هذا الضوء بمعناه الحرفي ومعناه الرمزي (ex oriente Lux). إنني بجدالي هنا عن كون الإسلام يملك الإجابات الصحيحة عن أسئلة الغرب الكثيرة وأزماته المتعددة، إنما أوضح وأثبت أن الإسلام ليس طالب إحسان من الغرب، ولكنه مانح رئيس لكثير من القيم وأساليب الحياة.

أما أن يعترف الغرب بهذا أو لا فهذه مسألة أخرى. فجميعنا يعرف بطبيعة الحال الكثير من المرضى أو المدمنين الذين يحجبون الحقيقة ويرفضون الذهاب إلى طبيب حتى لا يواجههم بالحقيقة. وهذا هو حال المجتمع الغربي، فبالرغم من وجود تحليلات دقيقة ونافذة ذات دقة بالغة مثل تحليلات William , Danill Bell Ophuls المبهرة، فإن غالبية الناس الذين يعيشون معهم هذه الأزمة، أزمة حضارتهم، لا يعون أبعاد هذه الأزمة. فالاتجاه العام في الغرب يميل إلى إصدار أصوات الانتصار، ولا يفيد التشخيص السليم والعلاج السليم مريضاً إلا إذا تناول هذا المريض الدواء وتناوله في أوقاته. ولكن هذا غير متوقع، فجزء من المشكلة هو أن الغرب قادر على الرؤية والفهم ولكنه غير قادر على الفعل، كما هو حال كل الحضارات في حالات انهيارها. لقد صاغ ذلك الرئيس الألماني السابق Roman Herzog هذا عندما قال : «نحن لا نعاني مشكلة معرفة، ولكن مشكلة تحويل هذه المعرفة إلى فعل»[١٠].

إن القرآن يتضمن أخباراً عديدة عن شعوب لم تستمع إلى صوت الحق ولم تستجب لرسلها، بل ضربت بتحذيراتهم عرض الحائط حتى غربت حضاراتهم تماماً. والغرب ينتظر مثل هذا المصير، فبعد انتصاره على الشيوعية يتهدده تدمير الذات ومصير الفناء، إلا إذا تجاوز تأليه الإنسان، ووجد طريقه مرة ثانية عائداً إلى التمسك بالقيم الإلهية.

ويشير الإسلام إلى هذا الطريق.

❁ ❁ ❁

(١٠) هيرتزوج Herzog خطبة برلين. العالم يوم الأحد ٢٧ / ٤ / ١٩٩٧ ص ١١ .